وزارة التعليم العالي والبحثالعلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية
الدراسات العليا

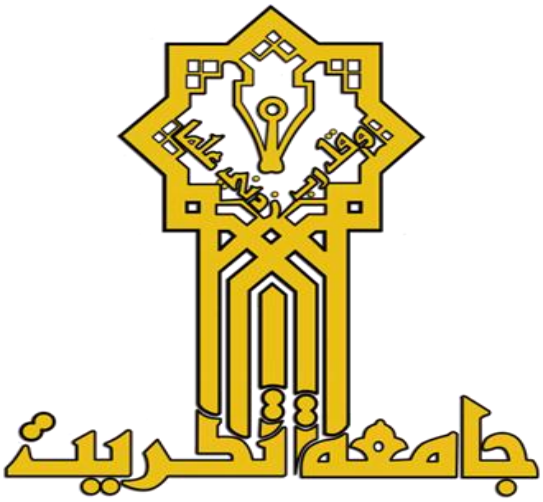

الفضاء

دكتوراه أدب

أسم المادة / دراسات أدبية حديثة

أستاذ المادة
أ.د. غنام محمد خضر

٢٠٢٤ - ٢٠٢٥

الفضاء لغة:

ذُكِرَ في لسان العرب: (فضا) الفَضاءُ المكان الواسع من الأَرض والفعل فَضا يَفْضُو فُضُوّاً. قوله « يفضو فضوّاً » كذا بالأصل وعبارة ابن سيده يفضو فضاء وفضوّاً وكذا في القاموس فالفضاء مشترك بين الحدث والمكان فهو فاضٍ والمكان أَفْضى إذا اتسع وأَفْضى فلان إِلى فلان أَي وَصَل إِليه وأصله أَنه صار في فُرْجَته وفَضائه وحَيِّزه.

الفضاء اصطلاحا:

مفهوم الفضاء السردي من المفاهيم التي نشأت حديثًا ويفيد مفهوم الفضاء الأبعاد المكانية في النص السردي، إذ أن كل الأحداث والشخصيات لابد لها من فضاء تتحرك فيه، ومكان تجري فيه أحداث السرد ووقائعه وتتشكل عبره أبعاد الشخصيات الروائية، لا يقتصر تعريف الفضاء السردي على تصور واحد، بل يأتي بأكثر من تصور في بنية النص السردي وكل شكل يؤدي أكثر من وظيفة جمالية.

ويمكن ذكر اغلب المصطلحات ذات الصلة بموضوع الفضاء وكما يلي:

الفضاء_ المكان_ البيئة_ الاطار_ الحيز_ المكان الروائي_ الفضاء المكاني_ المكان الحكائي_ الفضاء الجغرافي_ الفضاء الواقعي_ الكرونوتوب_ الزمكان_ الفضاء الروائي_ الفضاء الدلالي_ الفضاء الموضوعي للكتاب_ الفضاء النصي_ الفضاء الطباعي_ الفضاء الحكائي.

<u>نضرة تاريخية لمصطلح الفضاء</u>

ولم ينفصل الإنسان عن "الفضاء" يومًا فهو يخترق حياته ويلقي بظلاله عليه؛ وكما قال غابريل مارسيل (إنّ الإنسان غير منفصل عن فضائه، بل إنّه الفضاء نفسه).. لقد نشأت دراسات الشكل الفضائي في الرواية من الجدالات الفلسفيّة الإغريقية والرومانية حول ماهية الفضاء والزمن. وأنّ الشكل الفضائي في الأدب يمت قطعًا بجذوره إلى

تفسير الفلسفة والفنون والعلوم للفضاء الفيزيائي. فتاريخيا كانت البدايات الأولى للجدل حول الفضاء بين الملطيين والفيثاغوريين، وقطع ذلك الجدل مراحل عدة إلى أن حدا بأفلاطون أن يجعل مفهوم الفضاء والمادة هما النقطة المركزية للفلسفة الأوربية عبر العصور الوسطى. أما أرسطو فاعتبر تمييز المكان والفضاء أمرا جوهريا حاسما من حيث النظرية؛ لكنّه يواجه التباسا حين يوضع على مرجل التطبيق، ويرى أنّ المكان هو الحدود الحافة بالمحتوى، والفضاء هو الحدود الداخلية لذلك المحتوى، وبمعنى آخر المكان يحتوي الفضاء.. كما يؤمن بأنّ المكان متغيّر بينما الفضاء ثابت؛ فقد تحتل الشخصية دائما فضاء غير أنّها لا تحتل نفس المكان دائما.. وصاغ مفهوم طول (الزمن وقصره) باعتبار أن التحديد الوحيد للزمن هو حجم الحركة. وفي القرن السابع عشر برزت جدليّة ما إذا كان الفضاء مطلقا أم نسبيا، وتمظهر ذلك في ما يسمى بالنظرية العقلانية التي اقترحها "ديكارت" الذي يرى أن ليس ثمة فرق بين الجسم والفضاء، وأن الفراغ منعدم، ولخّص التمييز الأرسطي بين المكان والفضاء بأنه تمييز للفكر وحده، وهناك أيضا النظرية المطلقة التي صاغها نيوتن ومفادها أنّ الزمن والفضاء النسبيين هما مجرد أبعاد قياسية للزمن والفضاء المطلقين. ويمثل الفضاء عند لوك المسافة بين نقطتين، أمّا المكان فهو علاقة المسافة بين نقطتين أو أكثر. والفضاء عند كانط "حدس خالص" أي "الشرط الذاتي للإحساس" وهي كما يقول إبراهيم جنداري الفكرة التي أصبحت أمرًا حاسمًا لدى الروائي في خلق الشخصيات الروائية. ومع بدايات القرن العشرين بدأ العلماء في تفنيد ما سبق من نظريات ومن هؤلاء "هنري بيرغسون" والذي ركّز على الطبيعة النسبية للفضاء، والزمن، وعلى المدرك بدلا من الزمن العلمي؛ ليصل إلى طبيعة الديمومة والذاكرة. ومنهم أيضًا "مايرهوف" حيث وضع في كتابه "الزمن في الأدب" عددًا من أشكال الزمن في الأدب منها: الواقع الذاتي، التدفق المتواصل، الديمومة، الاندماج الدينامي، البنية الزمنية للذاكرة في علاقتها بهوية الذات، السرمدية، الزوال أو الموت". وبرغم ذلك ما زالت الدراسات الغربية التي تناولت مكوّن الفضاء في الرواية في بداياتها، ولم تصل لدرجة طرح نموذج نظري متكامل يمكن الاستناد عليه في تحليل الأعمال السردية بطريقة شموليّة متفق عليها. لذا يظل ما قُدم حول الفضاء الحكائي مجرد اجتهادات متفرقة تتضارب حول تصورات النقاد

والدارسين حول المفهوم. ولج مصطلح "space" أو "الفضاء" إلى الدراسات العربية بفعل الترجمة، وهو كما تقول "زوزو نصيرة" مصطلح شائع عند النقاد الغربيين في حين يظهر مصطلح "المكان" عندهم على استحياء؛ بعكس النقاد العرب الذين لا يصطنعون مصطلح الفضاء في كتاباتهم النقدية بينما يحتل مصطلح المكان عندهم مقاما طباعيا أكبر؛ بل ربما يرفضه البعض ويسميه بـ "الحيّز" كما هو عند عبد المالك مرتاض، وهناك من يقرن بين "الفضاء" و"المكان" بعبارة "الفضاء المكاني" كما عند حسن بحراوي، أو "الحيّز المكاني" لـ عبد الحميد بورايو. ويناقض حسن نجمي المفاهيم السابقة ليصبح "الفضاء" عنده مجموعة من التيمات والتكرارات والقضايا والأفكار والمشاهد والشخصيّات التي قد تلهم مجموعة أعمال روائية، ويتضح ذلك خلال دراسته التطبيقية على أعمال الروائية الفلسطينية "سحر خليفة" ضمن كتابها "شعرية الفضاء السردي".. وربما حسمت عبارة "إن الفضاء قد تداخل ضمنيا مع المكان وتشربه وتغلغل فيه". وأن ما قدمه "لحميداني" وهو أنّ "الفضاء في الرواية يضم أمكنتها جميعا لأن الفضاء أشمل وأوسع من معنى المكان" يعد المفهوم الأوحد الذي وقر في أذهان الدارسين العرب وتوافق مع معظمهم.. ويتفق "سعيد يقطين" مع "لحميداني" حين يقول: "إن الفضاء أهم من المكان، لأنه يشير إلى ما هو أبعد وأعمق من التحديد الجغرافي؛ وإن كان أساسيا، إنّه يسمح لنا بالبحث عن فضاءات تتعدى المحدود والمجسد لمعانقة التخييلي والذهني ومختلف الصور التي تتسع لها مقولة الفضاء.

<u>وظائف الفضاء في الرواية</u>

أولا أنه إيهام ثانوي فعّال داخل النص، ووسيط تتحقق عبره الخصائص الفضائية في الفنون الزمانية كالمسرح والشعر والرواية.

أما الوظيفة الثانية فتتجلى من خلال الأنواع الهندسية كالنقطة والخط والمستوى والمسافة،

وتكمن الوظيفة الثالثة للفضاء في علاقة الرواية بالفنون الفضائية كالرسم والنحت والعمارة. تحتم البداية في كثير من النصوص السردية تحديد المكان والزمان؛ ففي

القصة القصيرة غالبًا ما يردان في السطور أو الفقرة الأولى، كما أنّ طبيعة القصة من حيث الطول والقصر ووحدة العقدة يفرضان أن تكون الإشارة إلى الزمان أو المكان سريعة على عكس الرواية التي تفرد بسبب طولها مساحة واسعة لمعنى الفضاء الروائي بمختلف تمظهراته، كما تُنبه معظم الروايات التصويرية القارئ إلى مكان الحدث وزمنه. تحتوي كل رواية على طوبوغرافيا نوعيّة لأنّ الكاتب يختار موضعة الشخوص والحدث داخل فضاء واقعي أو مستمد من الواقع.

اما الوظيفة الرابعة وهي تحكم الفضائية في مستوى الانفتاح والمحدودية فهناك أحداث رواية تبدأ في مكان واحد ثم تتماهى الأحداث وتتوزع على أماكن مختلفة؛ ومن هذا النوع الفضائية المتشظيّة، وهي وتمثل أقصى درجات الانفتاح على الأمكنة؛ وعلى النقيض هناك رواية يكون فضاؤها منغلقا، فيظل الشخوص والحدث رهين إطار ومكان معيّن لا يمكن تجاوزه. والكاتب الجيّد في هذا النوع من الروايات يحدث انفراجة في هذا الفضاء المغلق والمحدود باستخدام حرفي الإشارة "هنا" وهناك" ليموضع الروائي شخصيّته ويرافق إطار الأحداث، وتعتمد هذه الجغرافية الروائية كليا على مهارة تقنيات الكتابة السردية.

في السينما يتم قذف الفضاء والحدث في وجه المشاهد دفعة واحدة، دون الحاجة إلى خطاب خاص مواز لتوالي الأحداث يقدم معلومات عن المكان الذي تتحرك فيه الأحداث والشخصيّات؛ بعكس الرواية التي تجبر الكاتب على قطع مجرى الحكي ليتوقف برهة ويعمد إلى وصف الأمكنة والأزمنة؛ فالفضاء داخل الرواية لفظي. ويمكننا التميز في دراسة الفضاء الروائي بين اتجاهين؛ الأول اختص بالروايات التي يغيب فيها الاهتمام بالديكور فلا يعرف الفضاء إلا من خلال أفعال الأبطال وأفكارهم وحركتهم، أمّا الاتجاه الثاني فاختص بوصف الفضاء، واعتنى برصد الألوان والأشكال والأصوات والأبعاد. وقد نجح الخطاب الواقعي في هذا النوع من الوصف؛ والذي يقتضي توقفا مؤقتا لمجرى السرد، وتوقف الناظر، ووجود شخصية قادرة على رؤية شيء ما من خلال وسط شفاف كـ " نافذة، واجهة، باب مفتوح.. إلخ". تتباين تشخيصات الفضاء بحسب طرائق الوصف عند السارد، فقد يكون الوصف عموديًا أو أفقيًا أو بانوراميًا،

وقد يكون وصفا سكونيًا أو متنقلا، وأحيانًا يكون انتقائيًا، أي أنّ الروائي يقصر وصفه على جزيئات وعناصر محددة، وقد يأتي على شكل منظور تتضح مقدمته بينما تظل الخلفية مموهة. وللفضاء تأثير على إيقاع الرواية، فهو يندرج في اختصار واقتصاد المشهد الذي يجمع بين شخصيتين، وانعكاس ما يحيط بهما من فضاء على المونولوج الجاري بينهما. وفي المقابل نلمح في بعض الأعمال الأدبية وجود ديكور مجرد أو ملموس يغني الروائي عن الإسهاب والتفصيل في وصف الفضاء بما يكون عونًا له في تقنيته السردية؛ فالفضاء الجيد المتماسك يغني السارد عن مهمة التحليل والتعليق؛ كما يتكفل بمهمة الإيحاء بالانفعالات النفسية لشخوص الرواية، فمثلا الفضاء الضاغط كالزنزانة الانفرادية أو الحبس داخل تابوت خشبي أو الوأد يذكي في نفس السارد وشخوصه الروائية والقارئ الشعور بالقلق، والضيق، ومحاولة التمرد أو الثورة؛ فـ"الفضائية" تؤثر على الفعل التأويلي للنص، والذي يخلق بدوره حقلا مطابقا يجعل القارئ متفاعلا مع النص. ويبقى القول إن الفضاء داخل الرواية أعمق من أن يكون منمنمات وكلمات مهمتها إكساب النص ديكورا تخييليا تصويريا، بل يرتبط وثيقا باشتغال الأثر الروائي؛ فالفضاء داخل الرواية هو أكثر من مجموع أمكنة موصوفة ومرصوفة سرديًا بعناية.

تصنيفات الفضاء:

حصر حميد حمداني الفضاء في اربع مكونات هي:

الفضاء المكاني: هو الحيز المكاني الذي يتحرك في داخله الأبطال سواء في الرواية أو الحكي عامة، ويسمى عادةً الفضاء الجغرافي لأن الكاتب يقدم إشارات جغرافية للمكان الذي تدور فيه أحداث روايته كأسماء المدن والبلدان، وهي إحالة خارج نصيّة منها تتشكل رؤية القارئ وتتحرك مخيلته.

الفضاء النصي: هو حيز مكاني غير أنه يختص بالحيز الذي تشغله الكتابة النصية كونها أحرفًا طباعية تكتب على مساحة من الورق، ويشمل على تصميم الغلاف

وعتبات النص، ونوعية الخط، وتنظيم الفصول، وتشكيل العناوين، والمسافات بين الفقرات أو المتواليات السردية، وعدد الصفحات وحدودها.

الفضاء الدلالي: وهو ما تخلقه في القارئ لغة السرد أو الحكاية؛ من حيث ما تربطه بها الدلالات المجازية والرموز والإشارات في النص، أو بمعنى آخر هو الصورة في الحكي.

الفضاء كمنظور أو رؤية: وهو الفضاء الذي تفرضه وجهة نظر المؤلف من خلال الخطاب العام في السرد، أو الحركة الخفية التي يديرها من خلال الأبطال الذين يتحركون في داخل عالم السرد.

أهمية الفضاء:

يلعب الفضاء دورا مهما في العمل السردي ، ويشكل عنصرا حيويا من العناصر التي يقوم عليها العمل السردي ويختلف المكان في الرواية عن المكان في الواقع فهو في الغالب مكان خيالي والمكان في الرواية له أهمية كبرى لأنه يعد من التقنيات الأساسية التي يعتمد عليها العمل السردي ، فلا يمكن دراسة الفضاء منعزلا عن باقي العناصر الأخرى فمثلا الشخصيات لا يمكن أن تتفاعل مع بعضها البعض وتتحرك في الفراغ دون وجود فضاء محدد فنجد محمد عزام يؤكد هذا الرأي ويقول "تتبثق دراسة من كونها مرشدا إلى نماذج أكثر دلالة على الحياه وإسهاما في تطوير الابداع الأدبي ..... كما أنه يحتل حيزا كبيرا وهاما في الرواية العربية ، ذلك أنه لا أحداث ولا شخصيات يمكن أن تلعب أدوارها في الفراغ ودون مكان ومن هنا تأتى أهمية المكان ليس كخلفية للأحداث فحسب بل وكعنصر حكائي قائم بذاته. أي أن المكان عنصر أساسي مهم لا يمكن دراسته معزولا عن باقي عناصر الرواية الأخرى.

وينقسم الفضاء القصصي الى فضاء طبيعي واجتماعي:

الفضـــاءات الاجتماعيـــة: أمـاكن مـن صـنع الانسـان وتزخـر حكايـات فاكهـة الخلفـاء ومفاكهـة الظرفـاء بالعديـد منهـا؛ وهـي أمـاكن يسـتقر الانسـان فيهـا، ويلجـأ إليهـا ليجـد الأمـان والراحـة المتمثلـة فـي البيـوت والقصـور والحديقـة وغيرهـا عنـد ابـن عـرب شـاه بكثـرة، وذلـك بسبب كثرة العنصر البشري في قصصه.

الفضـاءات الطبيعيـة: وهـذه الفضـاءات ليسـت مـن صـنع الانسـان ولا دخـل لـه فـي تكوينـه وتزخـر كليلـة ودمنـة بالعديـد مـن الفضـاءات الطبيعيـة، وهـي امـاكن يسـتقر فيهـا الحيـوان كالغابـات والجبـال والكهـوف والوديـان وغيرهـا وذلـك بسـبب غلبـة العنصـر الحيـواني فـي روايات ابن المقفع

الفضاء المفتوح والمغلق

الفضاء المفتوح

ويقصـد بـه هـي الأمـاكن المتسـعة المفتوحـة التـي لـيس لهـا حـدود سـقفيه، فالفضـاء المفتـوح مكـان طبيعـي لـيس للإنسـان دخـل فـي تشـكيله وتكوينـه ، مثـل الصـحراء والغابـة مـثلا ، ولا تلـزم الشخصـيات الإقامـة الدائمـة الجبريـة فيهـا فهـي أمـاكن إقامـة اختياريـة، يقضـى فيهـا الشخصـيات بعـض الوقـت، فهـي ليسـت أمـاكن للراحـة والاسـترخاء والعـيش والألفـة، ودلالـة الأمـاكن المفتوحـة تمتـاز بالحريـة والتنقـل فيهـا بسـهولة دون قيـود، فهـي ليسـت مقصـورة علـى شـخص بعينـه بـل متاحـه وعامـة للجميـع فيسـتطيع كـل فـرد التواجـد فيهـا دون تفرقـة ، وتتميـز بالاتسـاع والانفتـاح، فهـي تتـرك للشخصـيات الحريـة الكاملـة مـع الالتـزام وعـدم الاخلال بالتقاليد الاجتماعية.

فالمكـان المفتـوح هـو الـذي يتـردد عليـه الفـرد مـن دون قيـد أو شـرط مـع عـدم الاخـلال بـالعرف الاجتمـاعي أي ممارسـة سـلوك غيـر سـوي يرفضـه المجتمـع كالسـرقة والعدوانيـة وهـو عنصـر أساسـي تتحـرك مـن خلالـه الشخصـيات الروائيـة فضـلا عـن كونـه عضـيد الزمن الذي يتعامل مع الكاتب.

وللمكـان المفتـوح قيمـة كبيـرة فـي السـرد الروائـي لـذلك تتخـذ الروايـات عمومـا أمـاكن متفتحـة علـى الطبيعـة، وتـؤطر بهـا الأحـداث مكانهـا، وتخضـع هـذه الأمـاكن لاخـتلاف يفرضـه الـزمن المـتحكم فـي شـكلها الهندسـي وفـي طبيعتهـا وفـي انواعهـا، إذ تظهـر فضـاءات أخـرى وتختفي أخرى.

الفضاءات المغلقة

هـو ملجـا الانسـان للحمايـة فيـه، ويكـون اختيـاره بـالإرادة ولـيس بالإجبـار وهـو الفضـاء الوحيـد الملـيء بالـذكريات، فهـو مـأوى الانسـان ، معـزول عـن العـالم الخـارجي، فهـو المكـان الـذي تحـده حـدود ولـه حـواجز وقيـود، وتحـدث باشـلار عـن المكـان المغلـق يجـب أن يحـتفظ بـذكريات، ويتـيح لهـا فـي الوقـت ذاتـه الاحتفـاظ بقيمتهـا الأساسـية كصـور؛ إن ذكريـات العـالم الخـارجي لـن يكـون لهـا قـط نسـق ذكريـات البيـت، وحـين نسـتدعي هـذه الـذكريات فإننـا نضـيف إلـى مخـزون ذكرياتنـا مـن الأحـلام إننـا مـؤرخين حقيقيـين، بـل نحـن أقـرب إلـى الشـعراء، وقـد تكـون انفعالاتنـا ليسـت إلا تعبيـرا عـن الشـعور الـذي فقـدناه. ومـن الفضـاءات المغلقـة: (البيـت، المملكـة وقصـور الملـوك، الحُجـرة، العـش، الـوكر، البئـر، الكهف، الخ...).